

## صفحات أرمنية في تاريخ القدس

### بيان نويهض الحوت\*

مدينة القدس التاريخية، الشهيرة بالقدس القديمة، تضم داخل سورها العريق خمسة أقسام أو أحياء متجاورة منذ مئات الأعوام، وهي، بحكم وجودها التاريخي: الحي المسيحي؛ الحي الأرمني؛ الحي الإسلامي؛ منطقة الحرم الشريف؛ الحي اليهودي. أمّا سبب "حادثة" الحي اليهودي على الرغم من قدم المملكة الإسرائيلية منذ ثلاثة آلاف عام، فناجم عن شبه انقطاع الوجود اليهودي في مراحل تاريخية متعددة؛ وهذا ما جعل الثري البريطاني اليهودي مونتفيوري، حين زار فلسطين زيارته الشهيرة سنة 1827، لا يجد فيها، ما بين شمالها وجنوبها، أكثر من 500 يهودي في فقر مدقع.<sup>(1)</sup> أمّا مشروعه لبناء مساكن للفقراء في القدس، والذي أنجز سنة 1856، فكان عبارة عن 27 كوخاً وطاحونة هواء لطحن الذرة، شيدت كلها خارج حائط المدينة.<sup>(2)</sup> وأمّا مساحة الملكية اليهودية في القدس القديمة فلم تكن لدى قيام دولة إسرائيل، في 15 أيار/مايو 1948، لتتجاوز 5 دونمات (ما يعادل أقل من 5000 متر<sup>2</sup>، وتحديداً 4596 م<sup>2</sup>).<sup>(3)</sup>

يقع الحي الأرمني جنوبي غربي القدس القديمة، وهو يشغل نحو خمس مساحتها داخل الأسوار. وترجع بداية الوجود الأرمني في القدس إلى القرن الرابع للميلاد، أي إلى أول عهد اعتناق الأرمن الديانة المسيحية وقدمهم إلى الأرض المقدسة للحج، واستقرار جماعة من الرهبان والحجاج بالقرب من "الغرفة العليا"؛ وهي بناء على جبل صهيون كان يعتبر مكان تجمع للمسيحيين الأوائل. ومن المعتقد أن كاتدرائية سانت

\* أستاذة مادة القضية الفلسطينية في كلية الحقوق والعلوم السياسية في الجامعة اللبنانية.

(1) Frank G. Jannaway, *Palestine and the Jews: or the Zionist Movement an Evidence that the Messiah will soon appear in Jerusalem to rule the Whole World therefrom* (Birmingham: C.C. Walker, 1914), pp. 8-9.

(2) Ibid., pp. 9-10.

(3) لم يبلغ مجموع أملاك اليهود في القدس كلها وفي جوارها وفي القرى المحيطة بها، لدى قيام إسرائيل، أكثر من نحو 24.000 دونم من مجموع نحو 564.000 دونم، أي بنسبة 4٪، وتحديداً 4.26٪. بشأن مساحات الأملاك في القدس، أنظر:

"The Achievement of Demographical Superiority (1917-1947)," part 3, in *Jerusalem: History and Present*, pp. 4-9 (visited 25/10/1999). <http://www.palestine-info.net>

جيمس للأرمن الأورثوذكس بنيت في هذا الموقع.<sup>(4)</sup>

يوم الفتح الإسلامي للقدس سنة 637م، وهو اليوم الذي تسلم فيه الخليفة عمر بن الخطاب المدينة سلماً من البطريرك صفرونيوس، منح الخليفة العادل العهد والأمان لسكان المدينة جميعاً، البيزنطيين والأرمن وكل المسيحيين.

ومع انتهاء العهد البيزنطي غادر كثير من البيزنطيين المدينة، لكن الكثيرين منهم أيضاً بقوا لشعورهم بالأمان؛ إلا إن الوجود البيزنطي انتهى بمرور الزمن، تماماً كما انتهى وجود اليونان أو الرومان في بلاد الشام، أو وجود العرب في الأندلس. أما الأرمن، فما كانوا هم الحكام كي يزولوا بزوال الحكم، ولا كانوا ارتبطوا بحاكم بيزنطي أو غيره كي ينتهي وجودهم بانتهاء وجوده. وهذا ما يميز تاريخ الأرمن من تاريخ كل "الأقليات" في القدس؛ فهو تاريخ لم ينقطع في أية مرحلة من المراحل.

قبيل عهد الإفرنج الصليبيين وتأسيسهم المملكة اللاتينية في القدس (1099 - 1187)، كان أصبح لحي الأرمن وجود معروف وطابع مميز. وقد عمل ملوك، الإفرنج الصليبيين على تشجيع النصارى المحليين في الأردن وسورية على القدوم إلى القدس، حتى امتلأت القدس فعلاً بأعداد كثيرة من الأرمن والسريان والأقباط. وكان من أبرز الأعمال التي قاموا بها استثمار الأراضي الزراعية التي كان أهلها المسلمون قد تركوها.<sup>(5)</sup> وكانت أهم المزروعات التي اشتهرت بها أديرة الأرمن وغيرها من الأديرة، على مر الأجيال، الزيتون والكرمة.<sup>(6)</sup>

يوم دخل صلاح الدين بيت المقدس سنة 1187، كان إلى جانبه الأورثوذكس العرب بقيادة الكاهن يوسف بابيط الذي عمل مستشاراً له.<sup>(7)</sup> وقد فصل صلاح الدين فصلاً نهائياً بين المسيحيين المحليين من عرب وغير عرب، وبين المسيحيين الإفرنج. فبينما كان من الطبيعي أن يغادر الإفرنج المحتلون المدينة، عمل صلاح الدين على عودة المسيحيين سكان البلد والمشرق. وهكذا ازداد عدد الأرمن والحشب والهنود واللاتين، وقد أعفوا من الضرائب، وقاموا بممارسة طقوسهم الدينية بحرية تامة.<sup>(8)</sup>

تأكدت حقوق الأرمن في عهد صلاح الدين في "مرسوم" جديد. غير أن أوضاعهم تراجعت بصورة عامة، كما تراجعت أوضاع سواهم من رعايا الكنائس المسيحية في

"The Armenian Quarter," in *Armenians in the Holy Land*, p. 3 (visited 12/3/2000). (4)

[http://www.holyland.org/Armenian Quarter.htm](http://www.holyland.org/Armenian%20Quarter.htm)

(5) شاكر مصطفى، "فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي"، "الموسوعة الفلسطينية"، القسم الثاني/الدراسات الخاصة (بيروت: هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1990)، المجلد الثاني، ص 448، 479.

(6) عبد الكريم رافق، "فلسطين في عهد العثمانيين (2)"، المصدر نفسه، ص 951.

(7) مصطفى مراد الدباغ، "بلادنا فلسطين: في بيت المقدس" (بيروت: دار الطليعة، 1975)، الجزء التاسع - القسم الثاني، رقم 1، ص 191.

(8) سهيل زكار، "فلسطين في عهد المماليك"، "الموسوعة الفلسطينية"، مصدر سبق ذكره، ص 593.

نهاية عهد المماليك. لكن هذا لم يمنع حي الأرمن من أن يتطور ويصبح له، في منتصف القرن الخامس عشر، ذكر يتردد على ألسنة الناس والمؤرخين. وبدءاً بعهد السلطان سليم الأول في القرن السادس عشر، أصبحت أوضاع الأرمن أفضل كثيراً من ذي قبل استناداً إلى "مرسوم" عثماني، وقد تجدد مثل هذا المرسوم من قبل عدة سلاطين. وهذه المراسيم أو الوثائق المخطوطة بإتقان رائع على ورق الرق والحريير والممهوررة بتواقيع السلاطين، تعتبر قطعاً فنية، وهي ما زالت محفوظة في مجموعة القطع النادرة في مكتبة الدير.<sup>(9)</sup>

أمّا الميزة التي رافقت تاريخ الأرمن في القرنين السابع عشر والثامن عشر فكانت كبر مساحة حيهم في القدس، حتى بلغ حجمه المعروف في القرن العشرين. وقد كتب عدد من الرحالة الأجانب عن توافد القوافل التجارية إلى فلسطين، وخصوصاً قوافل الأرمن واليونان منذ منتصف القرن الثامن عشر. أمّا الرحالة الإنكليزي براون الذي وصل إلى القدس في شتاء سنة 1797، وفي يوم كان الثلج يتساقط عند وصوله، فقد أدهشه إهمال كنيسة القيامة إلى حد انهيار بعض الجسور الخشبية في سقوفها، وهو ما أدى إلى تساقط الثلوج داخلها، بينما كان وصفه لدير الأرمن على العكس من ذلك، إذ قال إنه كان في أحسن بناء، ويتسع لألف حاج.<sup>(10)</sup>

وبعد نحو ستين عاماً، زار الرحالة السويسري فيلكس بوفيت القدس في موسم الأعياد، فقال إنه قدر وجود 15.000 حاج أورثوذكسي و10.000 حاج أرمني، بينما كان الحجاج من الأوروبيين هم الأقلية.<sup>(11)</sup>

في عهد الانتداب البريطاني عُرف حي الأرمن بحارة الأرمن، على غرار القول حارة النصارى أو حارة اليهود في القدس القديمة. ومن أبرز معالم الحي دير الأرمن الذي كتب على بابه باللغات الثلاث، الأرمنية واللاتينية والعربية: "دير الأرمن مار يعقوب". ويحيط بالدير عدة كنائس، أكثرها شهرة كاتدرائية سانت جيمس، وهناك مبنى البطريركية، ومقر البطريرك، ومساحات مكشوفة، وحدائق، ومكتبة، ومتحف، ومطبعة، ومدارس ابتدائية وثانوية، وبيوت للسكن، ونواد اجتماعية ونواد للشباب. كما يتصل بحارة الأرمن دير الزيتون حيث يُحتفظ بجميع سجلات الطائفة الأرمنية. أمّا المنطقة السكنية المجاورة للدير فهي تتصل به عن طريق الشوارع الصغيرة الضيقة التي تشتهر القدس القديمة بها، وهي تحمل أسماء أرمنية، مثل "طريق أرارات".<sup>(12)</sup>

John H. Melkon Rose, *Armenians of Jerusalem: Memories of Life in Palestine* (London: (9) The Radcliffe Press, 1993), pp. 12-13.

W. G. Browne, *Travels in Africa, Egypt and Syria from the year 1792 to 1798* (London: (10) T. Cadell Junior and W. Davies, 1799), p. 361.

Felix Bovet, *Voyage en Terre Sainte* (Paris: Calmann Levy, 8<sup>ème</sup> edition, 1895), p. 124. (11)

"The Armenian Quarter," op. cit. (12)

حافظ الأرمن على المباني القديمة؛ فيوم أقيمت بطريركية الأرمن الكاثوليك في القرن التاسع عشر، مكان حمام السلطان من القرن السادس عشر، لم يعمل المهندسون على تقويض القديم كله، وإنما أبقوا على بعض العقود التي تميزت بتشكيلات إنشائية فنية، كما أبقوا على أحواض المياه.<sup>(13)</sup>

أمّا في كنيسة القيامة نفسها، فهناك قسم للأرمن، كما لسائر الطوائف الكبرى. منذ سنة 1870، أخذ سكان القدس في الخروج من داخل الأسوار للبناء والسكنى على الهضاب المحيطة بالقدس التاريخية. واشتهرت القدس "الجديدة" بجمالها، وبمبانيها من الحجر الأبيض والقرميد الأحمر، وببساتينها التي كانت تحيط بمعظم البيوت. وكان للأرمن نصيب كبير من المباني الجديدة. وأهم ما يميز هؤلاء المقتدرين منهم أنهم ما عملوا على السكنى في حي خاص بهم، وإنما اختلطوا بالسكان العرب، في كل الأحياء الجديدة، كالتالبية والقطمون والبقعة الفوقا، أي أن الأرمن مقارنة بالأجانب الذين كانت لهم الكولونية الألمانية، أو الكولونية اليونانية، مثلاً، لم يعملوا على تشييد "كولونية أرمنية" خاصة بهم، وإنما شيدوا بيوتهم متفرقة بين بيوت العرب.

كان من الطبيعي أن يختلط السكان الأرمن بالعرب لعدة أسباب، منها أنهم أتقنوا اللغة العربية وتكلموها كأهلها، وإن يكن بلكنة خفيفة جداً بالنسبة إلى بعضهم، كانت موضع إعجاب السامعين؛ ومنها مشاعر الانتماء المصطلح عليها بـ "الهوية"، ذلك بأن وجود الأرمن في القدس كان خلافاً لمنطق وجود "الأقليات" في العالم كله. فهم لم يشعروا بأنهم أقلية، ولم يتصرفوا كأقلية. وهم مع محافظتهم التامة على خصوصيتهم كشعب له تقاليد وعاداته وصفاته، وعلى تميزهم بتسميتهم كاغهاكاتسي (kaghakatsi) - وهذه كلمة تعني أرمن القدس المحليين - فقد تمكنوا من الاندماج في كل مناحي الحياة في القدس، بحيث أن كلمة "أرمني" لم تكن تعني انتماء إلى جالية أجنبية.<sup>(14)</sup>

بإيجاز، كان الأرمني في مدينة القدس، التي عاشت فيها أغلبية الأرمن الفلسطينيين، كما كان في سائر المدن الفلسطينية، "أرمنياً" بكل ما في الكلمة من معنى، كما كان "فلسطينياً" بكل ما في الكلمة من معنى. وما نظر العرب الفلسطينيين يوماً إلى الأرمن، إلاّ نظرتهم إلى أبناء وطن واحد. ولعل عطاء الأرمن الدائم في مجالات الثقافة والفن والعلم هو الدليل على اندماجهم الكلي في نسيج هذه المدينة العريقة. تعتبر مكتبة دير الأرمن، أو دير مار يعقوب، من أكثر مكتبات الأديرة في القدس

(13) عفيف البهنسي، "العمارة والزخرفة في فلسطين"، "الموسوعة الفلسطينية"، مصدر سبق ذكره، المجلد الرابع، ص 826.

(14) أنظر أيضاً: Rose, op. cit., pp. 3-12.

القديمة شهرة. فهي تحتوي على ثاني أكبر مجموعة من الوثائق الأرمنية في العالم، ومنهم من يعتبرها المجموعة الأكثر أهمية، إذ توجد فيها وثائق ترجع إلى القرون المسيحية الأولى، بالإضافة إلى العهود والمراسيم والرسائل من قبل الحكام المسلمين إلى الطائفة الأرمنية في القدس.<sup>(15)</sup> ويبلغ عدد المخطوطات فيها نحو 3000 مخطوطة، جاء بالكثير منها الحجاج الزائرون وقدموها للكنيسة، عبر القرون.<sup>(16)</sup> أما أبرز مكتبات الأديرة الغنية الأخرى فهي: مكتبة دير الروم (البطيركية الأورثوذكسية)؛ مكتبة دير اللاتين (دير المخلص)؛ مكتبة دير السريان (دير مار مرقص).

أنشأ الأرمن الغريغوريون مطبعة لهم في القدس نحو سنة 1848، وأصدروا كتباً دينية في معظمها، باللغتين الأرمنية والتركية بحرف أرمني. وهذه هي المطبعة الثانية في تاريخ القدس، فقبل عامين، أي سنة 1846، كان الآباء الفرنسيون قد أنشأوا أول مطبعة في المدينة.<sup>(17)</sup>

وفي سنة 1929 تأسست مكتبة أرمنية ضخمة بأموال تبرع بها الثري الأرمني غولبنكيان، وقد تطورت حتى أصبحت تضم أكثر من 60.000 مجلد.<sup>(18)</sup>

على صعيد الفن اليدوي الحرفي، كان أكثر ما اشتهر به أرمن القدس النقش على الفخار، أو صناعة الخزف المعروف بالسيراميك، وهو فن قديم جداً في فلسطين، لكنهم هم الذين عادوا فأدخلوه إلى القدس، حتى بات من أجمل الحرف اليدوية التي تعزز بها فلسطين. تعلم الأرمن هذا الفن في شمال تركيا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وطوروه حتى برعوا فيه، واشتهروا به في القرن الثامن عشر، واختصوا بفنهم هذا عدة كنائس ومتاحف في العالم. وكان من الطبيعي أن يختصوا كنائسهم في القدس بنصيب كبير، حيث عملت اليد الماهرة بالنقش على حيطانها لوحات وآيات من الجمال.

ازداد مجيء الخزافين الأرمن في أوائل القرن العشرين بسبب تصاعد الاضطهاد التركي لهم. وكان أمراً مثيراً للتأمل أن يعمل هؤلاء القادمون المعذبون والهاربون من مجازر، لا على سؤال أي كان منة أو عطاء، وإنما على القيام هم أنفسهم بالعطاء. وقد أبدعوا في عطائهم، حتى اكتسبت دور العبادة ومقر الحكومة وجدر البيوت الثرية بأعمال السيراميك الجميلة.<sup>(19)</sup>

(15) كامل العسلي، "المكتبات الفلسطينية منذ الفتح العربي الإسلامي حتى سنة 1985"، الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، المجلد الثالث، ص 308.

(16) Rose, op. cit., p. 12.

(17) محمود زايد، "الاتحادات والجمعيات والروابط والمطابع والأندية ومؤسسات البحوث الفلسطينية ومراكزها"، الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، المجلد الثالث، ص 251.

(18) المصدر نفسه، ص 308.

(19) "Armenian Pottery," p. 1-2 (visited 16/3/2000). <http://www.holy-land-online.com/arm->

ومرت الأعوام، وتعلم أهل القدس وأهل الخليل صناعة السيراميك من الأرمن، وبرعوا فيها أيضاً. وأصبح الزائر لحوانيت الخليل، كما لحوانيت القدس القديمة، يجد الصحون والكؤوس والمزهريات وغيرها، من مختلف الحجم، وقد صنعت كل واحدة منها بفن وجمال.

برع الأرمن في مهن كثيرة أخرى، في الصناعة والحرف اليدوية المتعددة والتجارة والصياغة والخياطة والنجارة وغيرها. وما كان أكثر أهمية من البراعة هو الصدق والأمانة، حتى أقبل سكان المدينة قاطبة على التعامل مع الأرمني. ويندر أن تتحدث مع مقدسي عاش في عهد الانتداب ولا يذكر لك أسماء الكثيرين من أصدقائه الأرمن، وأسماء الذين تعامل معهم أول مرة، ثم لم يتعامل مع سواهم. ويندر أن تجد مقدسياً لم يعرف أو لم يسمع بالطبيب الماهر كاليبيان، هذا الطبيب الدائم الابتسام والملجأ لكل الحالات المستعصية. إذا اشتد المرض على أحدهم، حملته أسرته من دون تفكير إلى عيادة الدكتور كاليبيان في "أول نزلة المصراة". وعيادته من معالم القدس، ومن لم يزر هذه العيادة مرة في حياته، أو من لم يعرف مكانها تحسباً للطوارئ، فهو ليس "مقدسياً".<sup>(20)</sup>

أمّا اليوم الأرمني في القدس فهو يوم عيد الميلاد المجيد، الذي يُحتفل به في 19 كانون الثاني/يناير، لا في السادس منه موعد احتفال الكنائس الشرقية. والسبب في ذلك رغبة الأرمن في تفادي الازدحام، وخصوصاً بسبب مجيء الآلاف من الحجاج من الخارج، وقد جرت العادة أن يبقى أرمن القدس في القدس، فلا ينتقلون إلى بيت لحم.<sup>(21)</sup> وانطلاقاً من حرمة الأماكن الدينية لم يكن مسموحاً للناس بأن تسكن بالقرب من الدير والمباني الملاصقة له في القدس القديمة. فهذه كلها كانت من أجل رجال الدين، وهذا ما جعل الطابع الديني هو الغالب على حارة الأرمن. لكن القاعدة اخترقت مع مجيء الأرمن اللاجئين هروباً من مظالم الأتراك في أوائل القرن العشرين، إذ فتحت أبواب الدير وكل المباني المجاورة له لاستيعاب الأعداد الكثيرة الوافدة، والتي هدها الجوع والمرض. وتضامن السكان العرب مع الوافدين، وتعاونوا.

أمّا المرة الثانية التي تعرض فيها الأرمن للهجرة، لكن من القدس لا إليها، فكانت خلال حرب 1948. وروى القائد عبد الله التل، قائد الكتيبة السادسة الأردنية التي دخلت القدس القديمة في 18 أيار/مايو 1948، في مذكراته، كيف اتخذ من دير الأرمن مقراً للقيادة من أجل فصل حي الأرمن عن الحي اليهودي، ومن أجل حماية الأرمن من

pottery.htm

(20) أعرف أناساً كثيرين جداً أنقذ حياتهم الدكتور كاليبيان، الطبيب الماهر جداً والإنساني، وأنا شخصياً واحدة منهم. كنت فتاة صغيرة آنذاك، وكانت فلسطين خارجة من الحرب العالمية الثانية.

Rose, op. cit., p. 8. (21)

اليهود ومن العرب على السواء. فاليهود كانوا يعتبرون الأرمن مع العرب، وأمّا الجيش العربي نفسه الداخل للإنقاذ، فكان بينه جنود قد لا يميزون بين الأرمني واليهودي، وهكذا يتعرض الأرمني للخطر من الجهتين، كما روى التل. والواقع أن حي الأرمن تكبد خسائر فادحة لأنه وقع بين نار الجهتين المتقاتلتين. ولمّا أصبحت المنطقة كلها هدفاً لنيران اليهود، سقطت مئات القنابل على الدير وعلى الحي.<sup>(22)</sup>

مع ذلك كله، تضامن الأرمن مع العرب، وكان على رأس الأرمن الأورثوذكس البطريرك كيوريغ الثاني، وعلى رأس الأرمن الكاثوليك الأب كيوميغيان، وكانا يحثان الناس على التحمل بصبر. وقد تحمل الأرمن خسائرهم بصبر. وقدموا كل التسهيلات الممكنة للجنود العرب.

وكان أقسى يوم عاشه الأرمن في تلك المرحلة، يوم الأحد الواقع فيه 12 أيلول/سبتمبر 1948، يوم رمى اليهود قنبلة على ساحة دير الأرمن، بينما كان الناس خارجين من الصلاة، فأدى انفجارها إلى مقتل 6 وجرح 32.<sup>(23)</sup>

بالإضافة إلى القصف، كانت مأساة الهجرة. فقد التجأ إلى دير الأرمن وحرارة الأرمن ما بين 3000 و4000 لاجئ أرمني من مختلف أنحاء القدس، فضلاً عن عائلات مسلمة من منطقة النبي داود ربطتها بالأرمن صداقات جوار من قرون طويلة. اعتقد هؤلاء "اللاجئون" أن مسألة اللجوء مؤقتة، لكنها تحولت إلى قضية مستعصية. فاضطر الكثيرون منهم إلى الهجرة متوجهين نحو أرمينيا، أو الولايات المتحدة، أو أميركا الجنوبية، أو أوروبا، أو أستراليا. لكن عدداً من تلك العائلات الأرمنية استقر بالقدس القديمة وما زال يعيش فيها حتى اليوم، ولم يتمكن من العودة إلى بيوته في القدس الغربية التي احتلتها إسرائيل ما بين 15 و18 أيار/مايو 1948. هؤلاء هم اللاجئون من القدس إلى القدس.

أمّا المرة الثالثة في مسلسل الهجرة، فكانت هي الأسوأ، وحدثت في إثر حرب 1967، إذ أُجبر الأرمن على تفريغ عدد من المباني احتلها الإسرائيليون عدواناً وانتقاماً. وتمادت السلطات الإسرائيلية حين منحت قسماً من المحتلين الجدد عقوداً طويلة الأمد للسكن.<sup>(24)</sup>

ما زال الحي الأرمني حتى اليوم على خريطة القدس القديمة. غير أن حقيقة التجاور مع الحي اليهودي تجعله يجابه خطر التقلص أكثر فأكثر مع مرور السنين. ومن المؤكد أن عدد السكان تقلص أيضاً، ففي عهد الانتداب كان عدد الأرمن في القدس

(22) عبد الله التل (مذكرات قائد معركة القدس)، "كارثة فلسطين" (القاهرة: دار القلم، 1959)، ص 108 – 109.

(23) المصدر نفسه، ص 336 – 337.

(24) "The Armenian Quarter," op. cit.

القديمة والجديدة أكثر من 10.000 أرمني. أمّا حالياً فيعيش نحو 1000 أرمني في الحي الأرمني القديم، ويقدر مجموع الأرمن في إسرائيل وفي الضفة الغربية بنحو 2000.<sup>(25)</sup>

هل يستغرب بعد هذا كله تجاهل الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة مسألة الاعتراف بالمجازر التاريخية التي تعرض لها الأرمن، وهي المجازر التي ذهبت مثلاً في التاريخ المعاصر؟

في 22 نيسان/أبريل 1999، طلب وزير الخارجية الأرمني، فارتان أوسكانيان، من إسرائيل أن تعترف رسمياً بأنه كان هناك إبادة جماعية ضد الأرمن، لكنه لم يلق أي تجاوب.<sup>(26)</sup> وقد شرح أستاذ التاريخ الأرمني في جامعة كاليفورنيا، ريتشارد هوفانيسيان، أسباب تألم شعبه الأرمني من عدم اعتراف إسرائيل بالإبادة التي تعرض لها، بقوله: "إن الألم يتضاعف في ضوء التجربة اليهودية نفسها."<sup>(27)</sup>

وفي أيام الهجرة، كما في أيام القدس، برهن الأرمن أنهم لا ينسون القدس أبداً. فكان منهم من كتب أجمل الذكريات عنها، وكان هناك من كتب عنه وعنهما. وإني لأشهد بأنني ما عثرت يوماً على كتاب مذكرات عن القدس إلاّ وتناولته بشغف، أبحث في سطورهِ، وفيما بينها، عن شوارع القدس وحاتها وأيامها. وإني لأشهد بأنني ما وجدت حتى اليوم أقرب إلى نفسي من مذكرات جون ميلكون روز التي نشرها بالإنكليزية سنة 1993 بعنوان: "أرمن القدس: مذكرات عن الحياة في فلسطين". وصاحب المذكرات ولد في القدس سنة 1924، وأتقن اللغات الإنكليزية والأرمنية والعربية، ورفض مغادرة القدس مع أسرته.

في مذكراته سجل للأحداث التي جرت في الأشهر الأخيرة، ووصف لذلك اليوم الذي كان على أبيه أن يغادر المدينة لكونه بريطانياً مسؤولاً، وعلى أمه الأرمنية أن تغادر أيضاً لترافق زوجها. أمّا هو فرفض المغادرة، إذ طغى خوفه من المنفى بعيداً عن القدس على كل شيء، حتى على حبه لوالديه، وهو مدرك أنه قد لا يجد من يتفهم موقفه، فيقول: "فوق كل شيء كنت أتمنى أن أبقى مع الناس الذين كنت في طفولتي سعيداً جداً لكوني جزءاً منهم..."<sup>(28)</sup>

حين توقع جون روز ألاّ يجد من يتفهم موقفه كان على خطأ. فمن الذين تفهموا موقفه جيداً البروفسور وليد الخالدي، أمين سر مجلس أمناء مؤسسة الدراسات

Ibid., pp. 3-4. (25)

Marilyn Henry, "Armenia asks Israel to recognize Turkish genocide," p. 1 (visited 10/3/2000). <http://www.jpost.com/com/Archive/22Apr.1999/News/Article.5htm>

Ibid. (27)

Rose, op. cit., p. 183. (28)

الفلسطينية، وزميل جون روز في مدرسة المطران (St. George's School) في القدس. فهو من أخبرني كم كان جون روز محبوباً من الطلاب العرب، كما قال: "كنا نناديه تحبباً حنا وردة."

اضطر جون روز، أو حنا وردة، بعد فراغ الكولونية اليونانية من سكانها، إلى أن ينتقل إلى البقعة الفوقا، الحي المجاور. وقد اختار السكنى مع عائلات أرمنية قريبة وصديقة، فشعر بالأمان بالقرب منها. وقد كان من أسباب الأمان راية الصليب الأحمر الدولي التي ارتفعت خفاقة على المبنى، بسبب وجود طبيب أرمني بين السكان. وهو يقول:

"وصلت إلى لحظة حزينة جداً من حياتي... فقد أحببت بعمق كل ما في بيتنا في الكولونية اليونانية: الحديقة؛ الأشجار؛ الظلال؛ الفجر والغروب؛ الهواء؛ العصافير؛ الأزهار البرية والفراشات من حولها؛ الجيران؛ علاقاتنا بالناس المحليين؛ الزوار؛ الأصدقاء؛ البائعين المتجولين؛ صوت الجنادب الذي يهدد المرء حتى ينام في الليل... وجرس كنيسة سانت سيمون الذي يقرع صباح كل أحد... كل هذا الحلم الجميل كان عليه أن يتمزق مع مغادرتي الكولونية اليونانية."<sup>(29)</sup>

وروى جون روز كيف غادر المندوب السامي البريطاني، آلان كاننغهام، القدس في 14 أيار/مايو، فقال إن كل من تبقى من السكان في البقعة الفوقا والجوار ذهب لرؤيته ورؤية موكبه الذي رافقته حراسة مشددة، وهو يمر في شارع بيت لحم متوجهاً إلى مطار قلندية، حيث طار إلى حيفا، ومن هناك غادر فلسطين بالباخرة.

ولعله كان خير شاهد على ما جرى في حي البقعة الفوقا، الحي الذي بقي عرضة للسلب طوال عام ونصف عام بعد الاحتلال الإسرائيلي. أما البيوت الخاوية فلم يسكنها إسرائيليون إلا بعد توقيع اتفاقية رودس سنة 1949. وقال إن الجيش الإسرائيلي هو الذي قام، بدايةً، باقتحام البيوت بحثاً عن رجال ومعدات، ثم كانت جماعات الباحثين عن الطعام، تلتها جماعات السارقين لما خف حمله وغلا ثمنه، وأخيراً كانت مرحلة سرقة الأثاث، فقال أنه كان يشاهد من الشرفة شاحنات وعربات تجرها الخيل، وكلها "محملة بآلات البيانو، والبرادات، والراديوهات، واللوحات، والقطع الفنية، والأثاث، وكان بعض القطع ملفوفاً بالسجاد العجمي الثمين..."<sup>(30)</sup>

بعد تمكنه من العودة إلى بيته لتفقد ما جرى، وجد كل شيء قد تغير. كانوا اقتحموا البيت، وحطموا الأثاث، ورموا الصور العائلية على الأرض، وتركوا الأبواب والنوافذ مفتوحة. أما مجلدات باخ التي كانت هدية من أبيه فوجدها مبعثرة على تراب

Ibid., p. 188. (29)

Ibid., p. 200. (30)

الحديقة.<sup>(31)</sup>

مع هذا كله، بقي جون روز في القدس المحتلة معلماً للموسيقى في جمعية الشبان المسيحيين.

أمّا الفنان بول غيراغوسيان، الأرمني المقدسي المهاجر إلى بيروت، الذي عاش طفولته وحدثه في أديرة القدس، والذي احتلت الأيقونة المسيحية المقدسية المكانة المركزية في نتاجه، فيقول عنه الفنان والمقدسي الآخر كمال بلاطة: "ومن خلال عناصر الأيقونة المسيحية أخذ غيراغوسيان في تأسيس النواة الأولى للصورة الانطباعية للتراث، وبات العالم الأيقوني الذي توسطه جسد الإنسان، بمثابة المفتاح الذي أدخلنا غيراغوسيان بواسطته عتبات الزمان الفلسطيني."<sup>(32)</sup>

أمّا غيراغوسيان نفسه، فيقول عن حياته الفنية في القدس وبيروت معاً: "وعرفت أن العالم يعيش أيضاً في دير كبير، والإنسان في أي مكان، داخل الدير أو خارجه، يفتش دائماً عن طريق."<sup>(33)</sup>

ما زالت القدس تبحث عن طريق.

أمّا الأبواق الصهيونية الزاعقة بأن القدس "مدينة لليهود" وهدمهم، فهذه ينفياها نفيًا قاطعاً تاريخ من عاشوا في القدس بتواصل منذ القرن السابع للميلاد، وهؤلاء هم العرب؛ وكذلك تاريخ من عاشوا قبل هؤلاء، وبتواصل منذ القرن الرابع للميلاد، وهؤلاء هم الأرمن.

تاريخ الأرمن في القدس، الصامدين منهم والمهاجرين، جزء لا يمحي من ذاكرة القدس. وهو الجزء المشرق بالفن والعطاء والمحبة.

(31) Ibid., p. 207.

(32) كمال بلاطة، "الفن التشكيلي الفلسطيني خلال نصف قرن 1935 - 1985"، الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، المجلد الرابع، ص 887.

(33) المصدر نفسه.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)  
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:  
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>